

أُمة الدَّولة العَلَوِيَّة ، وَتَمسِكُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَبَيَانَ رَسُولِهِ الكَرِيمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

للدكتور تقي الدين الزركلي

وقد طلب منه اعيان غرناطة من العلماء والصالحين ، واهل الحل والعقد ان يبايعوه بامارة المؤمنين لما راوا من بلاثة الحسن في جهاد اعداء الاسلام ، وكشف الفتن عن المسلمين بالجيش الذي جاء به من المغرب من المجاهدين ، فابى عليهم كل الاياد ، ورعا وزهدا ، وتباعدا عن زهرة الحياة الدنيا اقتداء بجده محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله اخرج من ذريته رجال صدق ، وائمة هدى ، ومصاييح ظلام انقذوا المغرب من تكبته واقالوه من غترته ، واقاموا من كبوته ، فقطعوا رؤوس الفتن ، وجمعوا شمل الشعب ، وظهروا الثغور من رجس الاعداء المنتصبين ، ولم يتم ذلك الا لتمسكهم بكتاب الله ، واحتدائهم بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فان العز والتصر ، والسعادة والسيادة في بلادنا هذه ، وفي سائر البلدان التي فتحها الله على المسلمين ، كل ذلك منوط باعلاء كلمة الله ، واتباع كتاب الله ، وهذه مواقف شريفة وفخا هؤلاء الائمة امام كتاب الله وسنة رسوله تدل على مبلغ تمسكهم بهما .

الموقف الاول للامام المولى محمد بن الشريف لما بايع اهل سجلماسة واهل درعة ونواحيهما المولى محمد بن الشريف ، وكانت هاتان الناحيتان وغيرهما من الاراضي الجنوبية من بلاد السوس تحت حكم ابي حنون ، فتقلص ظله منهما ، واجمع اهاليهما على نصرة هذا الامير الجليل توجه الناحية الشرقية من

قال الله تعالى في سورة الاحزاب (33) انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) اخرج ابن ابي شيبة واحمد ومسلم وابن جرير وابن ابي حاتم والحاكم عن عائشة قالت : خرج النبي (ص) غداة ، وعليه مرط مرحل من شعر اسود ، فجاء الحسن والحسين فادخلهما معه ، ثم جاءت فاطمة فادخلها معه ، ثم جاء علي فادخله معه ، ثم قال (انما يريد الله) الآية .

ومن حديث وائلة بن الاسقع عند ابن ابي شيبة واحمد وغيرهما ان النبي (ص) قال بعد ما غطاهم بالكساء : اللهم هؤلاء اهل بيتي ، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

فاهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هم احق الناس بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونشر الويتهما بين الناس ، وتبوا أعلى المراتب في الدين والدنيا ، فهم سرر هداية ، ومصاييح الظلام ، كلما عظمت الخطوب ، وظلمت الآفاق بدا منهم سراج ، ولاح منهم بدر كشف الظلام ، وجدد الدين ، وقاد السفينة الى شاطئ السلامة والكرامة .

ومن هؤلاء المصاييح الفر الميامين الامام الحجة المجاهد ، الورع ، التقي الزركني ابو الاشبال علي بن الحسن بن محمد بن الحسن بن قاسم رضوان الله عليهم ، وكان هذا الامام على قدر محبته للعلم ، والجهاد في سبيل الله ، وحج بيت الله الحرام ، والاجتهاد في عبادة الله بكره الامارة .

المغرب ، قبايعته الاخلاف ، وهم العمارنة ، وعرب بني معقل ، فسار بهم الى بني (بنناس) ، فاستولى عليها ، ثم انتفى الى وجدة ، وكان أهلها حزبين : حزب يدعو الى الاثراك ، وحزب ثابت على ولائه لدولته المغربية فاعتز المواطنون الصادقون بمقدم الامير العلوي محمد ابن الشريف ، فانقضوا على الحزب الداعي الى الاثراك فخذلوا شوكتهم ، وفتكوا بهم وردوهم الى الصراط المستقيم ، وصفت وجدة ونواحيها للامير محمد بن الشريف ، ولم يبق فيها معارض ولا مشاغب ، وكان ذلك سنة 1060 هـ .

ثم استولى المولى محمد بن الشريف على ندرومة وتلمسان ، وما يحيط بهما من القبائل ، وتصدت له الحامية التركية التي كانت في تلمسان ، فهزمها شر هزيمة ، وقدم عليه محمود شيخ حميان مع اعيان قبيلته وبايعه ، ودخل في طاعته ، ووصل الى عين ماضي والاغواط في الناحية الشرقية من الجزائر ، واستبشرت قبائل العرب كلها في الجزائر بهذا الامير الميمون ، وكانوا كارهين لحكم الاثراك المغيرين المعتصمين ، ثم رجع الامير سالما غائبا منصورا مظفرا ، بعد ما شب تيران الحرب في الابالة التركية ، ونسبها نسفا ، وضرب اوليا بآخرها ، كما يقول الناصري في الاستقصا ، وخاف الاثراك على انفسهم ، فاستعملوا العقل والحكمة وبعثوا وفدا مؤلفا من عالين وقائدين تركيين ، فوصلوا الى سجلماسة ، ومعهم كتاب من رئيسهم عثمان باشا يناشد المولى محمد بن الشريف الله ، ويحاكموه الى شريعة جده محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول له : نحن مسلمون ، فيما ذا تستحلون قتالنا ؟

فناثر الامير محمد بهذه الرسالة ، واخذته القسرية وقال : والله ما اوقفنا في هذه المحذورة الا شياطين العرب ، انتصروا بنا على اعدائهم ، واوقعونا في معصية الله ، وايلقناهم غرضهم ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

والى اعاهد الله تعالى لا اعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعييتكم بسوء ، والى اعطيكم ذمة الله ، وذمة رسوله ، لا قطعت وادي تافنا الى ناحيتكم الا فيما يرضي الله ورسوله . وكتب لهم بذلك عهدا الى صاحب الجزائر ، وفتح بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعة واعمالهما . انتهى .

وهذا الموقف الذي وقفه هذا الامير الجليل يدل على خوف من الله ، واتهام للنفس ، ووقوف عند حدود الشريعة ، وتعظيم لحرمانها ، مع انه لو اراد ان يتأول ، لكان له في التأويل مجال .

فقد اخرج الطبراني بسند صحيح من حديث عبد الله بن السائب قال : قال رسول الله (ص) : قدموا قريشا ولا تقدموها ، وتعلموا من قريش ولا تعلموها ، ولولا ان تبطر قريش لآخبرتها ما لخيرها عند الله تعالى . وله شاهد عند البزار من حديث علي ابن ابي طالب ، وآخر عند ابن عدي من حديث ابي هريرة .

وفي الصحيح عن النبي (ص) انه قال : الخلافة في قريش ما اقاموا الدين ، لا يعادهم احد الا كبه الله على وجهه في النار .

فكان للامير محمد بن الشريف الحق في ان يتقبل بيعة من بايعه من تلك القبائل ، وان يتقدم ويحكم ، فهو احق بالحكم من اولئك الاثراك ، ولكن كما تقدم من شيعة آل البيت النبوي الكريم التواضع لله ولاخوانهم المسلمين اقتداء برسول الله (ص) الذي امره الله تعالى بقوله في سورة الشعراء (142 - 215)

وانذر عشيرتک الاقربین . واخفض جناحک لمن اتبعک من المؤمنین) .

امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يحذر اقرب الناس اليه ان يتكلموا على قرابتهم منه ولا يعملوا عملا صالحا ينجيهم من عذاب الله ، فحذرهم النبي (ص) امتثالا لامر ربه فقال عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين : يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، واتقدي نفسك من النار ، لا اغني عنك من الله شيئا ، ثم قال : يا صفية عمة رسول الله اتقدي نفسك من النار ، لا اغني عنك من الله شيئا ، يا عباس عم رسول الله اتقدي نفسك من النار لا اغني عنك من الله شيئا ، يا بني هاشم ، لا يأتيني الناس بالاعمال وتأتوني بالدنيا فتقولون : يا محمد ، فاقول : لا ، قد بلغت . او كما قال عليه الصلاة والسلام . فمثل هذه النصوص هي التي جعلت الامير محمد بن الشريف يعتذر للاثراك ويغادهم كما تقدم .

فان قيل : ما علاقة هذا الخير التاريخي بالموضوع الذي انت متصد للكتابة فيه ، وهو تمسك ائمة الدولة العلوية بكتاب الله وبيان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فالجواب :

ان معنى التمسك بكتاب الله ، هو اتباع الكتاب العزيز ، والوقوف عند حدود الله ، والتحاكم الى كتاب

الله عند النزاع ، والرضا بحكمه والتسليم له ، كما قال تعالى في سورة النور 51 - 52 انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا : سنعطى واطعنا ، واولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ، فاولئك هم الفائزون) وهذا عين ما فعله الامير محمد بن الشريف رحمه الله .

واخرج البخاري عن ابن عباس قال : قدم عيينة ابن حصن بن حذيفة ، فنزل على ابن اخيه الحر بن قيس ، وكان من نفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء اصحاب مجالس عمر ومشاورته ، كهلولا كانوا او شبابا ، فقال عيينة لابن اخيه : يا ابن اخي ، لك وجه عند هذا الامير ، فاستاذن لي عليه ، قال : ساستاذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستاذن الحر لعيينة فاذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطيئة ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم ان يوقع به ، فقال له الحر : يا امير المؤمنين ان الله تعالى قال لنبيه : (7 : 199) خذ العفو وامر بالعرف ، واعرض عن الجاهلين) وان هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل . وهكذا كان ائمة الدولة العلوية الذين سادوا وقادوا هذه الامة خيبر قيادة .

الموقف الثاني موقف مؤسس الدولة العلوية الشريفية ، ومرسعي قواعدها الامام رشيد ابن الشريف رحمه الله . كان هذا الامام متمسكا بكتاب الله وسنة رسوله ، محبا لاهل العلم بهما ، ومقربا لهم ، بكرمهم غاية الاكرام ، ويستشيرهم في جميع الامور ، ويصدر عن ارشادهم ونصيحتهم ، ولذلك مكن الله له في الارض وقطع بسيفه رؤوس الفتنة ، وجمع به الشمل بعد الشتات ، واصلاح به الامور بعد الفساد .

وقال صاحب الاستقصا نقلا عن صاحب النزهة ج 7 ص 35 ما نصه : وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين اوائل ذي الحجة سنة 1076 وبويع بها يومه ذلك ، ولما تمت له البيعة افاض المال على علمائها ، وغمرهم بجوزيل العطاء ، وبسط على اهلها جناح الشفقة والرحمة ، وظهر احياء السنة ونصر الشريعة ، فحل من قلوبهم بالمكان الازرع ، وتمكنت محبة من قلوب الخاصة والعامة . اهـ

ثم قال في ص 44 نقلا عن صاحب (نشر المثاني) من اخبار الامام رشيد بن الشريف : وكان يحضر

مجلس الشيخ اليوسي بالقرويين : اهـ وهذه لمعري منقبة فخيمة ، ومآثرة جسيمة ، فرحم الله تلك الهمم التي كانت تعرف للعلم حقه وتقديره قدره . ثم قال : وفي ابامه كثر العلم ، واعتز اهله ، وظهرت عليهم ابنته ، وكانت ابامه ايام سكون ودعة ، ورخاء عظيم . اهـ

الثالث مواقف الامام المؤيد بالله ركن الدولة وصاحب القوة والعزم والصلوة مولاي اسماعيل بن الشريف رحمه الله

منها ما حكاه صاحب الاستقصا ص 58 قال : واما سبب تسمية هذا الجيش (بعيد البخاري) فان المولى اسماعيل رحمه الله لما جمعهم ، وظفر بممراده بعصيتهم ، واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض ، حمد الله تعالى واتى عليه ، وجمع اعيانهم ، واحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم : انا وانتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب ، فكل ما امر به فعله ، وكل ما نهى عنه تركه ، وعليه نقاتل .

فماهدوه على ذلك ، وامر بالاحتفاظ بتلك النسخة وامرهم ان يحملوها حال ركوبهم وبقدموها امام حروبهم ، وما زال الامر على ذلك الى هذا العهد ، فلهذا قيل لهم (بعيد البخاري) اهـ .

لما قرأت هذا الموقف اصابتني تشعيرة ، ولم ادر كيف اقدر هذا الامام ، وكيف اتني عليه ، فان كلمته هذه لها مغزى عظيم يهز القلوب ، ويسمو بأرواح المؤمنة الى اعلى مستوى من الايمان واليقين ، وهذا الملك العظيم الذي كانت تحسب له ملوك اوربا الف حساب ، وكان يخاطبهم في مراسلاته معهم بأخشن خطاب ، وكان الامير شكيب رحمه الله معجبا أشد الإعجاب بمواقفه مع ملوك اوربا ، لا يمل من عرضها وتكرارها على كل زائر وكل مجالس ، وكانت تأخذه اريحة عظيمة حين يقرأ علينا سيرة هذا الامام العلوي العظيم .

استمع اليه يقول لعبيده وجنده : (انا وانتم عبيد لسنة رسول الله (ص) وشرعه المجموع في هذا الكتاب ، فكل ما امر به فعله ، وكل ما نهى عنه تركه ، وعليه نقاتل ،) هذا الكلام الحكيم البليغ يشبه كلام اصحاب رسول الله (ص) ، وكلام التابعين والائمة المجتهدين في دقته واحكامه .

فقد دل هذا الكلام على سنة اركان ، كل دولة حافظت عليها لابد ان تبلغ أوج السعادة والعزة والنصر

المبين ، ولا يستغرب بعد الاطلاع على هذا ما اعطى الله اسماعيل من العزة والنصر ، والقاء الرعب في قلوب اعدائه داخل المملكة وخارجها ، وكون رايانه في حروبه الكثيره مقرونة بالنصر والظفر .

الركن الاول (انا وانتم عبيد لسنة رسول الله (ص) وشرعه) استوى المالك والمملوك ، ومن خدم سنة رسول الله (ص) وسوى فيها نفسه بعبده وجنده فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، وما احسن قول البوصيري اذا فسر بهذا المعنى :

ومن تكن برسول الله نصرته
تلقه الاسد في آجامها نجس

يعني من يكن خادما لسنة رسول الله يصدق واخلاص تنفتح له جميع الابواب ، وتنهزم امامه جميع الاعداء ، وترتجف قلوب الاسد ، وهي في غرائها هيبة له واجلالا .

الركن الثاني ان شرع رسول الله (ص) مجموع في صحيح البخاري ، اذن فلا بد من العمل به ، كما سيصرح به هذا الامام تصريحاً يتقشع معه كل ظلام ، اما سرد الفاظه سرداً مجرداً عن الدراسة والعلم والعمل ، فان ذلك لا يفتي فتيلاً .

الركن الثالث (كل ما امر به نفعله) يعني بلا قيد ولا شرط ، لانه معصوم (من يطع الرسول فقد اطاع الله) (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) .

الركن الرابع (وكل ما نهى عنه تركه) وهو كذلك بلا قيد ولا شرط .

الركن الخامس (وعليه تقائل) اي وعليه نوالي وعليه نعادي ، وعليه نحب وعليه نبغض ، وهذا معنى الخبر (اوثق عرى الايمان ، الحب في الله والبغض في الله ، والموالة لله والمعاداة لله) .

الركن السادس (فعاهدوه على ذلك) اي عاهد الجند ملكهم وقائدهم معاهدة الرعية راعيتها ، ونحن نشهد بالله اننا ايضا عبيد لسنة رسول الله (ص) ، واننا نعاهد على ما عاهد عليه اولئك الجنود ذلك الامام العظيم .

ومنها ما ذكره صاحب الاستقصا ص 69 من حوادث سنة 1099 قال : وفي خامس جمادى الاولى استدعى السلطان فقهاء فاس لحضور ختم التفسير عند قاضييه ابي عبد الله المحاضي فحضرُوا وَاكْرَمَهُمْ ووضّلهم . اهـ

قد سمعت ما شغى وكفى في تمسك الامام اسماعيل بسنة النبي (ص) ، وهذا الخبر يدل على مقدار عنايته بتفسير كتاب الله عز وجل ، وهذا شروط السعادة والعزة والقوة ، فكل من فسر تلك القوة العظيمة ، والنصر المبين المتكرر المتوالي عشرات السنين الذي منحه الله هذا الملك السعيد بقدر التمسك بالكتاب والسنة ، فقد خيط خيط عشواء في ليلة ظلماء .

ومنها ما ذكره صاحب الاستقصا ص 78 قال : ولما ولي المامون على مراكنش امر برئيس الحضرة ، وامام الكتاب الفقيه ابي العباس احمد اليعمدي ان يعطيه التقليد ويوصيه بما تنبغي الوصاية به ، وكان المولى المامون متحرفاً عن الوزير المذكور ، فمضى اليه على كره منه ، وحاز منه التقليد ، واستمع لوصيته امتثالاً لامر والده ، ثم عاد اليه وقال : يا مولانا ان اليعمدي يتقصنك ، ويزعّم أنه الذي علمك دينك ، في كلام آخر .

فقال له السلطان رحمه الله : والله ان كان قد قال ذلك ، انه لصادق ، فانه الذي علمني ديني وعرفني بري . نقل هذه الحكاية صاحب البستان وصاحب الجيش ، وكلاهما قال : انه سمعها من السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد رحمه الله ، وهي متعبة نخيمة للمولى اسماعيل في الخضوع للحق والاعتراف به ، رحم الله الجميع . اهـ

ومنها ان الشيخ ابا علي الحسن اليوسي وجه رسالة الى الامام اسماعيل رحمة الله عليه بقصد النصيح ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانتقد حكمه فيها من ثلاثة اوجه : الاول في جباية المال من وجه شرعي ، وضرره بوجه شرعي . الثاني في اقامة الجهاد والمرايطة في الثغور . الثالث في الانتصاف للظالم من المظلوم ، وكف اليد العادية عن الرعية .

وكان نقده صريحاً مكشوحاً شديداً ، فقبله هذا الامام الجليل مع ما كان له من الهيبة عند الخاصة والعامة في داخل المملكة وخارجها ، ولم يكن احد يتجرأ على معارضته ، وان جل قدره .

ومن المعلوم ان الشيخ اليوسي كان استاذ اهل زاوية الدلاء وريب نعمتهم قد ابدا واعاد في مدحهم وموالاتهم ، والحنين اليهم ، وهم من اشد اعداء الدولة العلوية ، ولولا ان الامام اسماعيل كان عنده من تعظيم العلماء ، وخفض الجناح لهم ، وقبول نصحتهم ، وان كان مرا ، لانهم اليوسي تشيعه لارباب نعمته ، والنظر

نسألهم إذا سالوها ، وتجاربهم إذا حاربوها ، وكانوا معترفين باستقلال ملوكها . فالملك العلوي سليمان بن محمد لم يبالي بعداوة السلطان العثماني آل سعود ، لأنه عزيز مستقل لا يخضع إلا لله ، ولم يكن رحمه الله من قلة العلم بالمكان الذي يستطيع جيش العلماء المرتزقة الذين عبثهم السلطنة العثمانية لتكفير آل سعود وتضليلهم ، حسيما سول لها حبيبا للاستيلاء على بلاد العرب ، أقول : لم يكن هذا الملك الجليل من قلة العلم بالمكان الذي يستطيع فيه أولئك العلماء المرتشون أن يقصوه إلى صقوفهم ، وأن يلبسوا عليه الحق بالباطل ، ويوهموه أن عقيدة آل سعود ضالة ومخالفة للكتاب والسنة ، كما لبسوا على غيره من الأمراء والقادة غافلين مولاي سليمان موافقته لما يدعو إليه عبد الله بن مسعود ، لأنه وجدته مطابقة للكتاب والسنة ، ولم يكتف بأن يجيب رسالة برسالة ، بل أوفد ابنه أبا إسحاق المولى إبراهيم ، ومعه وفد من علماء المغرب إلى الأمير عبد الله بن سعود ، وبمت معه هدايا وتحفا فأكرم الأمير السعودي وقادتهم ، وتباحث العلماء المغاربة برئاسة أميرهم مع العلماء السعوديين برئاسة أميرهم ، فكللت المباحثات بالوفاق التام على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وترك القلوف قبور الصالحين وغيرهم ، وتجريد توحيد المباداة لله رب العالمين .

وعلى اثر ذلك ألف السلطان مولاي سليمان رسالته المشهورة المتضمنة لاتباع الكتاب والسنة ، ومحاربة البدع والمحدثات ، ومنها القلوف قبور الصالحين الذي يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ، وأمر أن تقرأ على المنابر في جميع أنحاء المملكة المغربية ، فتركها متقية خالدة على مرور الأيام ، فرحمه الله وأتابه رضاه .

أما الملوك الثلاثة الأئمة الإبرار الحسن الأول ، وعبد العزيز الأول ، ومحمد الخامس ، فتمسكهم بالكتاب والسنة أمر مشهور . أما الحسن الأول ، وعبد العزيز الأول ، فقد حدثني غير واحد من الثقات أنهم كانوا يعتمدان كل الاعتماد على الإمام المحدث المجتهد ، ناصر السنة ، وقامع البدعة ، عبد الله السنوسي نزول طنجة في آخر حياته ، وبها توفى رحمه الله ، وأجل من حدثني عنه العالم السلفي ، والمصلح البر الوفي مولاي عبد العزيز بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن رحمهم الله رحمة واسعة ، وهذا الرجل الكريم ، وإن لم ينحج في أيام ملكه لصغر سنه ، وكثرة الفتن ، وفساد الرؤساء ، فقد نجح بعد امتزاله الملك

إلى الحكم العلوي بعين السخط التي تبدي المساويء ويطش به ، ولكنه رحمه الله كان فوق ذلك . ومن أراد الوقوف على هذه الرسالة ليرى ما فيها من النقد الشديد ، ويعلم فضل الإمام اسماعيل ، وأذغانه للحق فليقرأها في كتاب الاستقصا ص 82 ، ولولا طولها لتقلتها ، ولكني اكتفي بالإحالة عليها . واقتصر على هذا القدر ، لأن المقام لا يتسع لأكثر منه في ذكر تمسك هذا الأمام بالكتاب والسنة .

أما السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل الذي يسمى بحق : عالم الملوك وملك العلماء ، فحدث عن البحر ولا حرج في تمسكه بالكتاب والسنة ، ونشره علم الحديث ، وعكوفه على دروسه ، وبذله كل جهد في ذلك ، ولم يكتف بذلك حتى ألف كتابا نفيسة خلدت له ذكرا وقхра لا تمحوه الأيام منها مسائل الأئمة الأربعة ، ومنها مجاذي الرسالة ، وكان تقادا مجتهدا بكرة مختصرات الرأي ويترغ الناس عنها ، ويرغب في كتب الحديث ، والفقه المبسوطة التي تجعل كل مسألة مقرونة بدليلها من الكتاب والسنة ، وقد ذكرت بشيء من التفصيل مواقف هذا الإمام من علوم الكتاب والسنة ، وتنفيذه عن الرأي والبدعة ، وتمسكه بالعقائد السلفية الخالصة من كل شبهة في الجزء الخاص بأمجاد الدولة العلوية من مجلة دعوة الحق الصادر في ذي القعدة 86 هـ مارس 67 م فافني عن أعادته هنا ، وقد جبلت الطباغ على معاداة المعادات .

وكذلك السلطان مولاي سليمان بن محمد ذكرت في ذلك المقال نبذة من تمسكه بالكتاب والسنة ، ووقوفه عند ورود كتاب الأمير عبد الله بن سعود أمير مكة يشرح فيها دعوة آل سعود ، ودعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمهما الله ، فقد وقف السلطان الجليل المولى سليمان رحمه الله عليه موقف الناقد البصير ، المنحري للحق ، القائل به غير خائف في الله لومة لائم .

ومن المعلوم أن السلطان العثماني كان قد اغتاض غيظا شديدا على استقلال العرب عن حكمه ، ورجوع إمارة بلادهم ، وخصوصا الحرمين الشريفين اللذين كان السلطان العثماني يتخذ الحكم فيهما دليلا على صحة خلافته وشمولها لجميع المسلمين ، حتى يعد من خرج عن حكمه خارجا على امام المسلمين .

ومن المعلوم أن بلاد العرب كلها ، وبلاد الاسلام في افريقيا وآسيا كانت خاضعة لسلاطين آل عثمان إلا المملكة المغربية ، فانها لم تخضع قط لهم ، بل كانت

إيما نجاح ، فقصى عمره في دراسة العلوم السلفية مع استاذة المذكور ، ومن سعد بمجالستهما من الناس ، مكثرا من الأعمال الصالحة وإفاضة البر والاحسان ، وأجبل القاريء الكريم على ما كتبه في ترجمته في جزء دعوة الحق من جزء ذي القعدة 86 هـ ما رس 67 م .

ومن أخبار عبد الله السنوسي الطريقة ما حدثني به أخي في الله العالم السلفي الورع الرباني الأستاذ محمد أبو طالب الإدريسي الحسني ، رحمه الله عليه قال : كان عند الفقهاء بفاس احتفال يدعى في بعض الأضرحة ، فأنكر عليهم عبد الله السنوسي واعتزلهم فجاءه أحد الفقهاء وأراد أن يداعبه بكلام يفضيه ليستخرج ما عنده من الدرر التي تجيء عفوا في حال غضبه فقال له القولة الجاهلية المشهورة عند المقلدين (نحن خليليون ، أن دخل خليل الجنة دخلنا معها ، وأن دخل النار دخلنا معها) فأجابه الإمام السنوسي على البديهة بقوله تعالى في سورة الانبياء (67) أف لكم ولما تعبّدون من دون الله أفلا تعقلون) .

أما الإمام المتقد الذي أجرى الله على يديه الكرامة الكبرى ، والزينة العظمى ، وهي تحرير المغارب الثلاثة من برائن عدو قوي ، فصارت له متعبة خالدة لم يسبقه فيها سابق . ولا لحقه فيها لاحق .

وما أحاسني من الأقوام من أحد الا شبله وخليفته ووارث سره أمام الوقت جلالة الحسن الثاني إيداه الله ووفقته وزاده من فضله ، فانه شريكه في تلك الحركات المباركة التي عم نفعها للأولياء ، وكانت قاصمة الظهر على الأعداء ، أقول : أن الإمام محمدا الخامس كان سلفيا ، ليس عنده حجة الا في كتاب الله وسنة رسوله ، وكان لا يرد ولا يصدر الا عن استشارة العلماء السلفيين كالإمام الحجة ، خاتمة المحققين ، بقية السلف ، وعمدة الخلف شعيب الدكالي ، والإمام الحجة ، بحر العلوم ، منطوقها والمفهوم ، سيف الله المسلول ، على أهل البدع والغلل أبي مصطفى محمد ابن العربي العلوي الحسني رحمهم الله رحمة واسعة

أما أمام الزمان ، وثابغة العصر والأوان أبو محمد الحسن الثاني ، حفظه الله بالسبع المثاني ، فانه سار على سنن سلفه ، وزاده الله من فضله ، فلم يزل يبدي ويعيد ، وتصدر منه المكرمة تلو المكرمة ، والآية بعد الآية ، ومفاخره التي أكرمته الله بها لا يمكن احصاؤها ، فلنقتصر على ما نحن بصددده ، وهو التمسك بالكتاب والسنة ، وبذل الجهد في ذلك .

فانه إيداه الله بنصره كان وزيراً لوالده ، ومشاركاً له في سلوكه ومناقبه ، ولما انتقل والده المبرور الى رحمة الله ، وتقلد أعباء الدولة ، سار على ذلك النهج القويم ، وأشهد بالله اني سمعت المعلقين السياسيين من البريطانيين يبدون تحفظا شديدا في استطاعة الحسن الثاني أن يتم حل المشاكل التي بدا يسعى في حلها والده ، وأن يحافظ على الاستقرار ، وهيبة الدولة والصلوة التي كانت لوالده رحمه الله في داخل المملكة وخارجها لعلهم بصعوبة تلك المشاكل وشدة تعقدها ، ووجود العقاب في طريق حلها ، وأخذ أولئك السياسيون يراقبون سير الحسن الثاني ، ويحسون خطواته ، فأخذ ربههم يتبحر ويدوب شيئا فشيئا ، فما دار الحول على حكمه حتى زال عنهم كل ريب ، وانطلقت الستهم بالاعجاب والأجلال .

ومن حدث عما يذاع في أذاعة لندن العالمية ، فانه لا يقضي سرا ، وقد وفقه الله لحل تلك المشاكل السياسية والاقتصادية على وجه فوق ما كانوا يتصورون ، ثم حدثت له مشاكل أعظم منها ، فسلك فيها مسلك الحكيم البارع المتوكل على الله ، المتبريء من حوله وقوته ، فخرج منها مظفرا مؤيدا منصورا أقوى مما كان حين دخلها ، وانقذ الاجتماع اليوم على كفاءته وتبوغه ، وكمال سياسته .

أما عنايته بكتاب الله وسنة رسوله ، فقد بذل في ذلك جهودا محمودة ، وسعى مساعي مشكورة ، فمنها تأسيسه لدار الحديث ، وهي أمنية طالما أخذت بألباب الملوك السابقين ، ولكن الله أدرها لهذا الإمام الجليل ، وكم ترك الأول للآخر ، ولا حاجة الى شرح ما لهذه المتعبة من الأهمية ، فانها قائمة بعينها تحدث عن نفسها ، وقد قال النبي (ص) : من أحي سنة من سنتي قد أميتت بعدي فله أجر مائة شهيد . وفي دار الحديث أحياء سنن كثيرة .

ومنها مدارس القراءان التي أمر نصره الله بإنشائها في جميع أنحاء المملكة ، ولا تزال في أول نشاتها لا تخلو من ضعف ، وكذلك الأمور في بدايتها ، وأول الغيث قطر ثم ينسكب .

ومنها المحافل القراءانية السنوية التي يقيمها في كل سنة ، ويدعو لها كبار العلماء من أنحاء الدنيا وأرجائها .

ومنها خطبه البليغة التي صرح فيها إيداه الله بنصره بوجوب اتباع الحجة ، وترك الرأي والتقليد . ومنها كثرة الدعاء في عهده الميمون الى الإصلاح باتباع

إذا كان عون الله للمرء ناصراً
تهدأ له من كل صعب مراده

وإذا العناية لاحظتك عيونهما
نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها المتقاء فهي حبال
واقصد بها الجوزاء فهي عنان

وهذه العناية الربانية هي التي نسال الله تعالى
ان تكون مصاحبة لعبده الخاضع لامره ، الحسن
الثاني وولي عهده سيدي محمد .

منقبة عظيمة للحسن الثاني

كنت اريد ان اخص هذه المنقبة بمقال حتى
جاءت هذه المناسبة المباركة ، فليكن جزء مقال ، وهذه
المنقبة العظيمة هي طبع كتاب (التمهيد لما في الموطأ من
الاسانيد) تأليف الامام الحافظ ، امام المغرب الكبير
باتفاق ائمة الشرق والغرب العالم البحر ، والمسند
الاكبر ، أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري رحمه الله ،
ولا اريد ان اذكر فضائل هذا الامام ، لانها مشهورة ،
لها غرر معلومة وحجول ، فهي في كتب اسماة الرجال
مبسوطة ، وفي مقدمة كتاب (التمهيد) مسطورة ،
ولكني اريد ان اسجل هنا كلمتين اولاهما في المؤلف
- بكسر اللام - وثانيهما في المؤلف - بفتحها - أما
الاولى فقد قال الامام الحافظ ابو الفداء اسماعيل بن
عمر بن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة البقر
(238) حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى (ما
نصه :

وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات
الخمس ، رواه ابن حاتم عن ابن عمر ، وفي صحته
ايضا نظر ، والعجب ان هذا القول اختاره الشيخ ابو
عمر بن عبد البر النمري امام ما وراء البحر ، وانها
لاحدى الكبر ، اذ اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يرقم
عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا اثر . اهـ

اقول : قد صح عن النبي (ص) بما لا يدع مجالا
للشك ان الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، وليس
مقصودي تحقيق القول في هذه المسألة ، وانما الذي
يهمني هنا هو شهادة ذلك الامام الحافظ لأبي عمر بن
عبد البر ، بأنه امام ما وراء البحر ، ومعنى ذلك انه امام
المغرب كله من مصر الى سكتال . وهذه شهادة لها
قيمة رفيعة .

كتاب الله وسنة رسوله ، وترك كل ما خالفهما ، فان
ذلك يقع بحضرته الشريفة ، كما هو ظاهر من خطب
العلامة الفاروقي ، ويقع في انحاء مختلفة من مملكته
المحرسة بالله على أيدي دعاة يصرحون بالحق كله ،
ولا يستطيع مخالفتهم على كثرتهم ان يمنعوهم ،
وارجو ان اكون منهم ، فاني كنت في العراق قبل ثورة
عبد الكريم قاسم ادعو الى اتباع الكتاب والسنة
عشرات السنين ، وكان المفسدون والمعارضون كثيرا
ما يوسوسون الى ملوك العراق ، ويلقبونني بالقاب
تدعو الى الريبة ، فلم ينجحوا قط في ذلك .

فلما جاء عبد الكريم قاسم اشتدت الازمة ،
وضاق الحبل على الدوح ، لانه اطلق العنان للفوضويين
والشيوعيين يقتلون ويخنقون ويسلحون في الشوارع
في رابعة النهار ، واخيف العلماء ودعاة الإصلاح ،
وزلزلوا زلزالا شديدا ، وصار الشيوعيون ، وان كانوا
كاذبين في شيوعتهم يتجههرون امام مسجدنا ، فخاف
التلاميذ على انفسهم وتفرقوا ، وكذلك المصلون الجمعة ،
وما استطعت الخروج من العراق الا بعد اثني والني ،
فرجعت الى وطني ومسقط رأسي ووطن اجدادي ،
فوجدت ابوابه مفتحة ، وما رايت من ملكه وزعيمه الامام
محمد الخامس الا كل ترحيب واقبال ، وكذلك خلفه
الابر الملك العبدري الهمام ابو محمد الحسن الثاني ،
زاده الله نصرا على نصر ، وتوفيقا على توفيق ، وخلص
ملكه ، واطال عمره ، وبارك في ولي عهده ، واقر به
عينه وعين شعبه ، وبارك في جميع آل هذا البيت
الكريم .

بقيت لي كلمة اقولها راجيا من ملكنا الهمام ان
يتبع صدره لها ، كما اتبع صدر سلفه الامام
اسماعيل لنصيحة الشيخ اليوسي ، وهي ان القدر
الذي يريده جلالته من اصلاح امور الدين ، وتحقيق
اتباع الكتاب والسنة ، قولا وعملا وحكما ، اذ بذلك
تنال السعادة العاجلة والاجلة ، ويتشئت شمل
الاعداء ، ويقضي عليهم القضاء المبرم ، ويقوم الملك
على اساس متين ، وتصلح السياسة ، ويسعد الراعي والرعية
لما نصل اليه حتى الان ، فأرجو من جلالته ، ويشاركني
في هذا الرجاء جميع دعاة الإصلاح ان يجرد عزمة
حسنية علوية هاشمية لتحقيق تلك الامنية وقطع
دابر اهل الفساد ، ولا يعنيه على ذلك ، ويبلغه اليه الا
الله وحده ، ثم صالحو المؤمنين .

وانا اعلم بالعقبات الكؤود التي تقف في طريق هذا
الاصلاح ، وان الذنب في ذلك ذنبنا جميعا كل على
حسب قدرته ، ولكن :

أقصد خزائن الافراد ، بل جميع الخزائن العامة التابعة للجامعات وغيرها .

وسيحديث نشر هذا الكتاب انقلابا عظيما في دراسات الفقه على جميع المذاهب الاسلامية ، ولذلك التمس بالنيابة من كل طالب علم في الدنيا من جلالة الملك المظفر ، ثم من معالي وزير الاوقاف الاستاذ الحازم السيد الحاج احمد بركاش التمجيل بالجاز طبع هذا الكتاب ، وبذل كل جهد في ذلك ، فان للتأخير آفات .

ولي التماس آخر ، وهو ان يباع الكتاب بالدرهم وان لا يوهب الا لضرورة ، او للخزائن العامة ، اما العلماء وطلبة العلم ، ومن يريدون ان يزينوا خزائهم ، فالواجب الحتم ان يؤدوا ثمنه ، وحسب الوزارة كرما ان يكون الثمن معتدلا ، فان هذا الكتاب لا ينشر النشر اللائق به الا اذا بيع ، وحجتي على ما ذكرت القصة التالية :

من المعلوم ان الكاتب القصصي (برناردشو) الانكليزي الشهير ، كانت القصة الواحدة من تأليفه يبلغ حق طبعا عشرين الف جنيه فاكتر ، وتتناقص فيها الدول لا الناشرون فقط ، ومن المأثور عنه انه الف كتابا ، فلما طبع ، كتبت اليه رئيسة ناد نسائي تلتبس منه ان يقدم لخزانة النادي نسخة من ذلك الكتاب على سبيل الهدية ، فكتب لها في الجواب : ان الكتاب الذي لا يدفع ثمنه لا يقرأ ، فصدمت بخيبة الامل ، وقصدت بائع كتب لتشتري نسخة من ذلك الكتاب ، واشتكت لذلك البائع غلبة المادية على المؤلفين وبخلهم وزهدهم في التبرع للتوادي الخيرية ، وحكت له قصتها مع برناردشو ، فقال لها : وابن جواب برناردشو الذي كتب اليك ؟ فارتبه اياه ، فقال لها : انا اقبل هذا الجواب لثمن نسخة من الكتاب ، ففرحت بذلك ومنحته اياه ، فباعه هو من شخص آخر بجمع الأثار والنواقيع بخمسة دنانير .

اقول هذا : وانا مستعد ان ادفع ثمن النسخة من كتاب التمهيد التي تكرميت وزارة الاوقاف الموقرة باهدائها الي المجلد الاول منها . والذي يحملني على ذلك حرصي على نشر هذا الكتاب ، فجزى الله الملك الحسن الثاني على هذه اليد البيضاء احسن الجزاء ، ووفقه الى امثاله وامثال امثاله انه سمع مجيب .

مكناس : الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

اما الثانية فهي مذكورة في مقدمة كتاب التمهيد ، وهي للامام الحافظ ابي محمد علي بن حزم رحمه الله قال : التمهيد لصاحبنا ابي عمر بن عبد البر ، لا اعلم في الكلام على فقه الحديث مثله اصلا ، فكيف احسن منه . وقال : ومن ادركنا من اهل العلم على الصفة التي بلغها ، واستحق الاعتداد به في الاختلاف ، مسعود بن سليمان ، ويوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر . انتهى .

ومن اراد ان يعرف قيمة هذه الشهادة فليطالع كتاب المحلى لابن حزم ليرى شدته وصرامته ، وغلظته على مخالفته كائنين من كانوا ، لا يهاب احدا . ومن المعلوم ان ابن حزم يخالف ابن عبد البر في المذهب اصولا وفروعا ، ولكن عبقريته الانت قتاة ابن حزم التي لم تلن قط لغامز ، فهي كفتاة عمرو بن كلثوم وقبيلته التي يقول فيها مخاطبا الملك عمرو بن هند :

فان قناتنا يا عمرو اميت

على الاعداء قبلك ان تلتينا

اذا عض الثغاف بها اشمازت

وولته عشو زنة زبوننا

عشوزنة اذا انقلب ارنست

تشج قفا المثقف والجيشنا

وقد الف هذا الكتاب العظيم منذ ما يربو عن تسعمائة سنة . ولا شك ان نشره ودراسته التي لا تتأني الا به لم يزل امية كل عالم ، وكل ملك وامير ، وكل غني ورئيس . ومن جملة الملوك الذين كانوا يتمنون نشره السلطان العالم الجليل مولاي عبد العزيز ابن الحسن ، كما اخبرني بذلك مرارا ، واخبرني ان والده السلطان المكرم مولاي الحسن بن محمد اعطاه نسخة مخطوطة من التمهيد قال : وهي باقية ضمن كسبي بفاس ، وسبب اخباره لي بذلك لاول مرة انني قلت له : اني سمعت ان الامام عبد الله السنوسي كانت عنده نسخة كاملة من التمهيد ، فقال لي : لا ادري ، ثم ذكر لي الخبر المتقدم ، ومنه تعلم عناية السلطان مولاي الحسن بن محمد بهذا الكتاب ايضا ، فلم يتح لواحد منهم ان ينشره ، لا بتكثير المخطوطات ، ولا بالطبع حتى كاد ينقرض ، ولكنها مكرمة ومفخرة ادخرها الله تعالى لجلالة الملك الحسن الثاني ، وهي يد بيضاء على كل طالب علم وعالم ، لا من المسلمين فقط ، بل من جميع البشر ، فلا توجد خزانة في الدنيا ، لا في امريكا ولا في اوربا ، ولا في اسيا تستغنى عن نسخة فاكتر ، ولا